دروب النهضة (٨)



جذور النهضة في العصر الحديث

تأليف

د. محمد العبدة

دار الصفوة

جذور النهضة
في العصر الحديث

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ ــ ٢٠٠٨م

رقم الإيداع

٢٠٠٧/٢٥٨١٢

الترقيم الدولي

I.S.B.N.

977 – 430 – 053 – x

دار الصفوة

للنشر والتوزيع

٤٢ ش جزيرة بدران أول شبرا ت وفاكس ٥٧٧٤٩٢١

E-mail. darelsafwah@yahoo.com

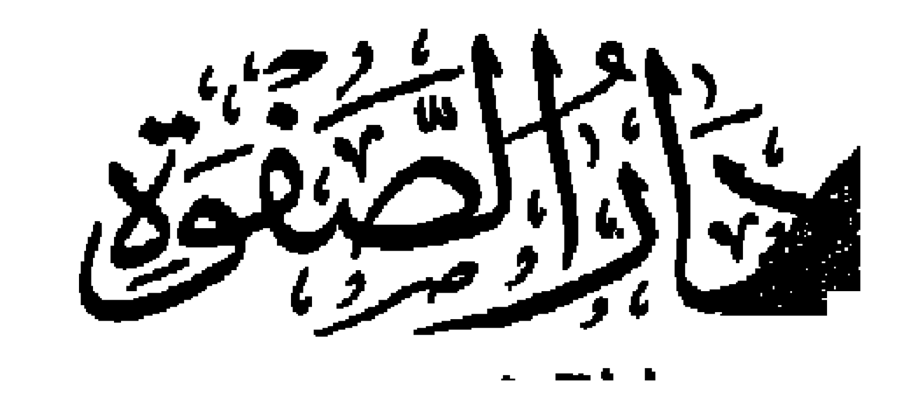
مصر ـ القاهرة

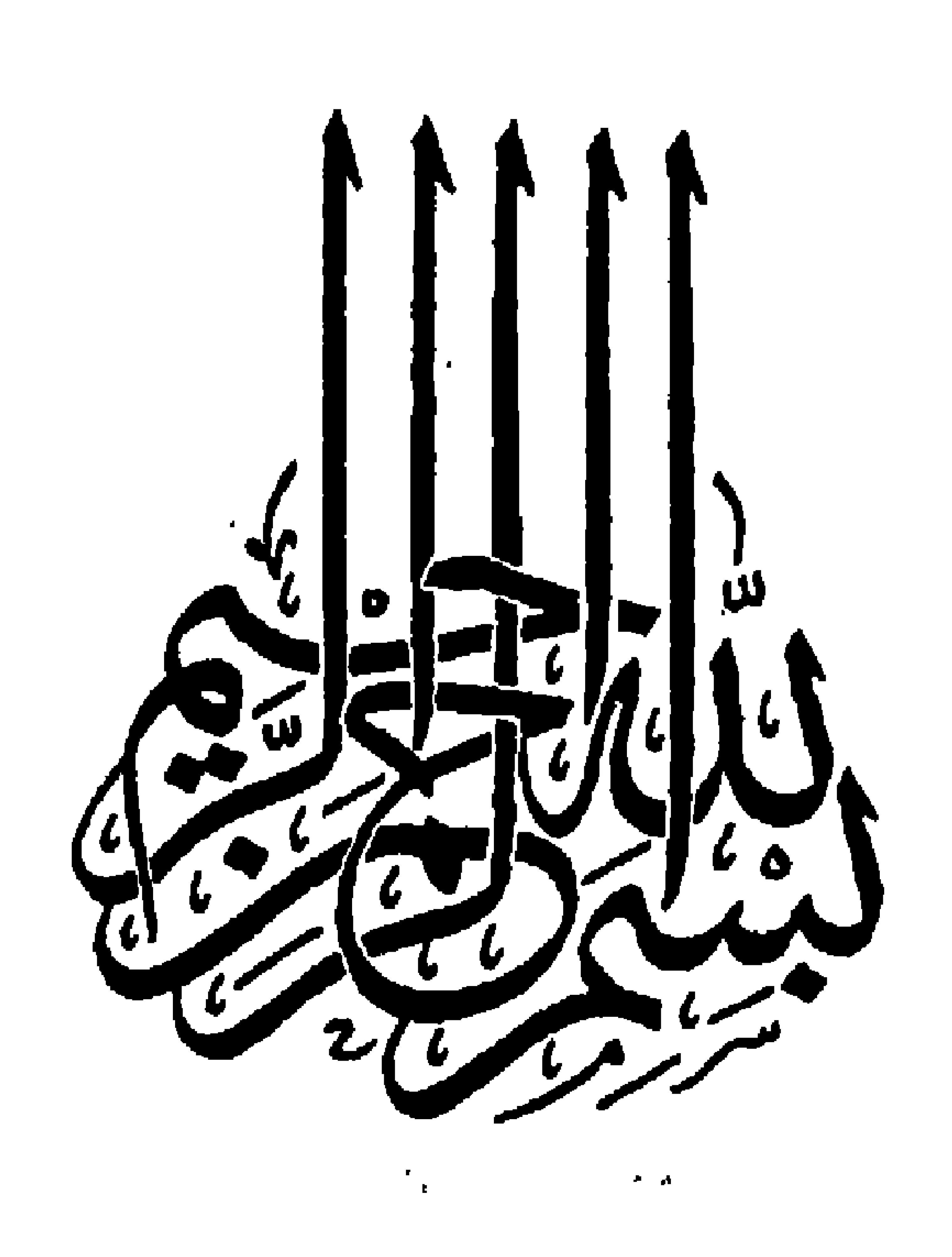
دروب النهضة (٨)

جذور النهضة
في العصر الحديث

تأليف

د . محمد العبدة




بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

إن أي تقدم عمراني، أو أي حديث عن النهضة لا بد أن يبدأ بالإنسان فهو محور التغيير، والجزء الأساسي فيه، وأولى الخطوات في ذلك هي تحريره من أسر الشرك والأوهام والخرافات والأساطير التي تصده عن العلم النافع والتفكير السليم. قال تعالى حاكيًا عن ملكة سبأ : ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعۡبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل/ ٤٣] أي صدها عن حصول العلم النافع عبادتها للشمس من دون الله، فكانت بذلك الاعتقاد منصرفة عن الكمال العلمي والرشد الفكري "[1] .

لا بد من فك الأغلال التي تحيط بالإنسان وتمنعه من الوصول إلى الغاية التي خلق من أجلها . يجب أن تتاح له الفرصة كي يعرف الحقائق ويعمل بها، وهذه هي دعوة الأنبياء ودعوة ورثة الأنبياء من العلماء الربانيين الذين يلون أمور الناس ويصلحون شأنهم .

الدين هو المصدر، وهو الطاقة التي تساعد على إنجاز التغيير المطلوب يقول أحد علماء النفس والاجتماع : " يستحيل الوصول إلى مجتمع جديد إلا إذا حدث تغيير عميق في الضمير الإنساني، إلا إذا ظهر شيء يكرس الناس حياتهم من أجله، لم توجد حضارة

(١) الطاهر بن عاشور : أصول النظام الاجتماعي في الإسلام / ٩ .

سبب ضعف المسلمين وسقوط همتهم ليس له إلا سبب واحد وهو ضعف الإيمان الذي ينتج آثاره السلوكية .

كانت دعوة الشيخ استنفارًا شاملاً، ولم يكن التوجه إلى شريحة معينة أو إلى (النخبة) فالشيخ كتب الرسائل إلى رؤساء القبائل وإلى عموم الناس وإلى المعارضين له أيضًا . كانت دعوته نقطة مضيئة في تاريخ العالم الإسلامي خلال فترة الركود والجمود، بل إن كل الثورات الإسلامية في القرنين التاسع عشر والعشرين ضد الغزو الأوروبي ستحمل في طياتها بذرة وهابية "[1] حسب تعبير جلال كشك .

لم تنحصر هذه الدعوة في نجد أو الجزيرة العربية، بل تعدى أثرها إلى مناطق بعيدة في العالم الإسلامي، تأثر بها في المغرب الأقصى السلطان محمد بن عبد الله سلطان مراكش (١٧٥٧ – ١٧٩٠) ووافقها في توجهاتها في الهند ما قام به الداعية أحمد بن عرفان الشهيد والشيخ إسماعيل بن عبد العز الدهلوي، وهما اللذان قادا حركة كبيرة لتأسيس دولة في شمال غرب الهند.

وفي اليمن قام الإمام محمد بن علي الشوكاني[2] (١١٧٣ – ١٢٥٠) هـ (١٧٦٠ – ١٨٣٤) م، ودعا إلى ترك التقليد وهاجمه هجومًا عنيفًا، كما هاجم الفساد الإداري المتفشي في عصره، وهو

(١) محمد جلال كشك : السعوديين والحل الإسلامي / ١٠٥ .

(٢) ولد في قرية (شوكان) تعلم في صنعاء وتتلمذ على كبار علمائها ، في عام ١٢٠٩ هـ تولى القضاء وبقي في هذا المنصب حتى وفاته .

فقيه مجتهد، ألف كتبًا كثيرة، ودعا إلى الرجوع للعقيدة الصافية، ومن أشهر كتبه : (نيل الأوطار) في الفقه و (إرشاد الفحول) في أصول الفقه، و (فتح القدير) في التفسير . ومن العلماء الذين ينسبون إلى اليمن ولكنه عراقي الأصل هندي المولد العلامة مرتضى الزبيدي (١١٤٥ - ١٢٠٥ هـ) (١٧٣٢ - ١٧٩١ م) الذي سكن (زبيد) ونسب إليها، ولكنه استقر في مصر منذ عام ١١٦٧ هـ وهو الذي أحيا طريقة المحدثين وبعث التراث اللغوي وعلوم العربية .

قال عنه عبد الحي الكتاني: لم يأت بعد ابن حجر أعظم منه اطلاعًا ولا أوسع رواية .

وظهر في العراق الآلوسيان: الآلوسي الكبير شهاب الدين محمود بن عبد الله (١٢١٧ - ١٢٧٠ هـ) (١٨٠٢ - ١٨٥٤ م) وهو مفسر ومحدث وأديب سلفي الاعتقاد . ومن أشهر كتبه : (روح المعاني) في التفسير، فيه أشياء صحيحة في تنقية الدين من الخرافات وفيه تصوف أيضًا، ومن كتبه : (النفحات القدسية في الرد على الإمامية)، وتابعه في هذا الإصلاح وبشكل أقوى وأوضح حفيده محمود شكري الآلوسي (١٢٧٣ - ١٣٤٢ هـ) (١٨٥٧ - ١٩٢٤ م) وهو مؤرخ وعالم ومن الدعاة إلى الإصلاح، حمل على أهل البدع، وتصدى للرد على الشيخ يوسف النبهاني من زعماء الصوفية في عصره . يقول الأستاذ محمد بهجت الأثري عن الآلوسي الحفيد : " كان نهاره كله مصروفًا من شروق الشمس إلى

غروبها - إلا سويعات منه - في تدريس هذه الثقافة العربية الإسلامية وإتاحتها لقاصديه "[1] . وقد انتدبته الدولة العثمانية للسفر إلى نجد والسعي لدى أميرها عبد العزيز آل سعود للقيام بمناصرتها في الحرب العالمية الأولى فقصده الآلوسي سنة ١٣٣٣ هـ وعرض عليه فاعتذر، وله مؤلفات كثيرة من أشهرها : (بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب) وأخذ عليه جائزة ملك السويد، و (فتح المنان) في الرد على أهل البدع، وشرح مسائل الجاهلية للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتاريخ نجد، و (صب العذاب على من سب الأصحاب) .

وفي الشام كان للشيخ جمال الدين القاسمي (١٨٢٣- ١٣٣٢هـ) (١٨٦٦ - ١٩١٤ م) دور كبير في تحرير الفكر من التقليد الأعمى والبدع والخرافات، وقد حورب وأوذي بسبب منهجه الإصلاحي واتهم بأنه يأتي بمذهب جديد وله مراسلات وصلات مع علماء العراق والشيخ رشيد رضا في مصر، ومن أشهر كتبه : (محاسن التأويل) في تفسير القرآن، و(دلائل التوحيد) و (قواعد التحديث) ..

ومن هذا الصنف من العلماء الذين يشعرون بأن عليهم عبء الإصلاح والنهوض الشيخ محمد بن العربي السملالي من القطر المغربي (١٢٤٩ - ١٣٢٣ هـ) (١٨٣٣ - ١٩٠٥ م) وهو داعية

(١) نقولا زيادة : أعلام العرب المحدثون / ١٦٥ .

إصلاح ديني وأديب من أهل (أدوز) بسوس المغرب ومن قبيلة جزولة، وكانت له زعامة هذه القبيلة، قام برحلات دراسية في بلدان المغرب . تصدى لدفع ما رأى أن الشرع لا يقره، وحارب الطرق المنحرفة، أولع بإتقان الصناعات اليدوية، فزاول البناء والتجليد والميكانيك، وصنف كتاب (الحيل) وكتاب (الكيفية التي يصلح بها النبات) [١] .

وفي ليبيا ظهر الشيخ محمد بن علي السنوسي وهو من أصل جزائري، ورغم اتجاهه الصوفي إلا أنه اهتم بتربية الناس على عدم التقليد، واهتم بأمور مهمة من الإصلاح الدنيوي لم يهتم بها غيره من معاصريه مثل الاهتمام بالزراعة والمهن والاستعداد للأعداء، ولهذا استطاعت الحركة السنوسية مقاومة الاستعمار الإيطالي وجابهت التوسع الفرنسي في غرب إفريقية .

هؤلاء الأعلام يجمعهم الاتجاه للإصلاح الحقيقي، مع اختلافهم أحيانًا في طريقة العرض وقوة التوجه، وملاحظة ما حولهم من تدفق الحضارة الغربية، ولم يديروا النهضة على سبب واحد ؛ فالاهتمامات كانت شاملة، فقد كلف الشيخ محمود شكري الآلوسي بمهمة سياسية إلى نجد، والشيخ القاسمي يهتم بالصناعات ويكمل كتاب والده عن الصناعات الشامية، والمرتضى الزبيدي يوجه اهتمامه إلى اللغة العربية، وإن اسمًا لامعًا

---

(١) خير الدين الزركلي : (الأعلام ٦ / ٢٦٦ .

ثقافة الغرب وحضارته وهو يمثل الالتحاق بمشروع محمد علي باشا المتفذ لسياسته، والتي كانت ترمي لتهميش الأزهر وتسخير كل الإمكانات لصالح عسكرة الدولة .

والطهطاوي وخير الدين التونسي يريدان إصلاحًا مركبًا من التقدم الأوروبي ونوع من تهذيب الأخلاق والاستفادة من الشريعة الإسلامية أو ما يسمونه (التقدم الروحي)، واهتمام خير الدين كان منصبًّا حول كيفية الوقوف أمام التيار الأوروبي المتدفق، فلا بد من إصلاح إداري ومالي مع تركيز على جوانب الحرية والعدل، وكلامه في هذا الجانب صحيح، ولكنه لم يكن مشروعًا متكاملا مبنيًّا على أسس راسخة .

وكذلك الذين جاءوا من بعدهم من رجال الإصلاح كالشيخ محمد عبده فقد كانت أعمالهم (ردود أفعال) فالجدلية الغربية ومفهومها للتقدم والتمدن فرضت نفسها، فعندما قال (رينان) و (كرومر) أن المسيحية هي المولدة للتمدن، وأن الإسلام مضاد للتمدن اندفع الشيخ عبده وبعض الكتاب في هذا التيار الذي خطه الغربيون وراحوا يدورون ما بين دفاع وتسويغ بل وتأويل تعسفي لبعض النصوص مما جعل البعض يطلق عليهم صفة (الاعتذاريون) وكأنهم سلموا لخصومهم بمفهوم التقدم [١] وهو مفهوم خطير إذا عني به التقدم المادي على حساب الدين

---

(١) انظر : فهمي جدعان : أسس التقدم عند مفكري الإسلام / ٣٩٩ .

والأخلاق، أو إذا عني به أن البشرية دائمًا في تقدم ورقي، وبالتالي فالأعصر الحالية هي أفضل من العصور السابقة في كل شيء !.

لم تبدأ النهضة من احتلال نابليون لمصر، ودخول خيله للأزهر، فهذا الاحتلال كان مقدمة للاحتلال الإنكليزي ودخول المنطقة في دوامة العهد الاستعماري، كان المسلمون على استعداد للترقي قبل حملة نابليون فهو (وإن بذر بذرة التحدي إلا أنه لم يقدم لهذه البلدان روح العلم، الذي تنهض به) [١] وترى المدرسة الغربية الاستعمارية أن الحملة الفرنسية كانت بداية بعث القومية المصرية أو بداية ذلك الطريق الذي عبَّدته بعد ذلك أقدام الإنكليز والفرنسيين والإيطاليين، وذلك لتحطيم الرابطة الدينية .

وقد ارتكب نابليون في ثورة القاهرة (١٧٩٨ م) من القوة وسفك الدماء ما يرتكبه القادة الغزاة المتوحشون، وكسروا القناديل في الأزهر وهشموا خزائن الطلبة ورموا الكتب والمصاحف على الأرض [٢] .

إن العمل الذي قام به أحد المهاجرين من الأندلس [٣] في ترجمة كتاب علمي هو لبنة قوية في بدايات النهضة لو أنه أكمل، واستمرت حركة الانتفاع بالعلوم الحديثة في الغرب فقد غادر أسبانيا عام ١٥٩٨ م، ١٠٠٧ هـ أحمد بن القاسم الحجري واستقر

(١) شاكر مصطفى : موسوعة دول العالم الإسلامي ٢ / ١٣٤٢ .
(٢) محمد جلال كشك : ودخلت الخيل الأزهر .
(٣) ويطلق عليهم (الموريسكيين) .

في المغرب وعمل مترجمًا للسلطان أحمد والسلطان زيدان السعديان واتصل في تونس بأحد كبار العسكريين الأندلسيين الضابط في البحرية الأسبانية [1] الرئيس إبراهيم بن غانم، وكان من الخبراء في المدفعية وقام أحمد بن قاسم بترجمة كتاب أعده الرئيس ابن غانم باسم (العزة والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع).

وقد لعب هذا الكتاب دورًا كبيرًا في تدعيم سلاح المدفعية في بلاد المغرب في مواجهة الأسطول الأسباني عندما بدأ يغير على السواحل الإسلامية، وشبيه بهذا العمل ما قام به الشيخ محمود قبادو التونسي (١٨١٣ - ١٨٦١ م) حين ترجم كتابًا للجنرال (جوفي) في التعبئة الحربية، وتولى الشيخ تهذيب ترجمته وتنقيح لغتها واختيار المصطلحات العربية العلمية، مع مقدمة طويلة دعا فيها الشيخ إلى الأخذ من الغرب العلوم الحربية والعلوم الطبيعية، وكان واضحًا في هذا، وليس عنده محاولات للترقيع مع مدنية الغرب، ومع هذا التبسيط في الطرح، فإنه أسلم من محاولات الطهطاوي وأمثاله الذين نظروا للمشكلة من زاوية القوانين، وبعض الأمور الحضارية، مثل قولهم : " القوانين الطبيعية عند الغرب هي أصول الفقه عند المسلمين"، يقول الشيخ قبادو : "فخذ ما أحماه الفهم، ودع ما أنباه الوهم، أما علمت أن الحكمة

(١) ويقال إنه شارك في الأساطيل الإسبانية التي غزت أمريكا.

ضالة المؤمن ينشدها، ولا يبالي أين يجدها " ويخاطب المسلمين الذين لا يفقهون سنن التقدم : " فقل لأقوام عن سنن الله يعمهون، وفي تيه اطراح الأسباب يهيمون، قد برح الخفاء ولكن لا تفهمون "(١) .

كانت جذور النهضة بادية قبل الحملة الفرنسية، عندما استطاع علماء الأزهر تكوين جبهة موحدة من المشايخ الكبار : الشيخ السادات، وعمر مكرم، وعبد الله الشرقاوي، والشيخ البكري . وقف هؤلاء أمام ظلم المماليك، وأجبروهم على توقيع وثيقة تتضمن رفع الظلم وإقامة العدل، كان ذلك عام (١٧٩٤م) قبل الحملة الفرنسية بأربع سنوات .

كانت حالة العالم الإسلامي قبل مرحلة الاستعمار مؤهلة للتقدم، وتحمل بذور النهضة، كانت هناك صناعات نسيج في مصر والشام قادرة على كسوتنا جميعًا، وأصبحنا نلبس القماش الإنكليزي(٢) . وبعد أن فرضت بريطانيا على الدولة العثمانية أن تخفض التعرفة الجمركية، كانت البضائع الأوروبية قد أغرقت الأسواق العثمانية وأدت إلى تحطيم ورش الغزل والنسيج التقليدية وإلى سحب مدخرات الشعوب العثمانية لصالح الأسواق الأوروبية . " كانت الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي ورغم فساد الإدارة كانت مرهوبة عند خصومها اللاتينيين، حتى إن بعضهم

(١) فهمي جدعان : أسس التقدم / ١١٩ .
(٢) حسين مؤمنس : الحضارة / ٣٥٠ .

كان يستعدي الجزائر على بعض، وكان يستقرض منها المال فتقرضه "(١)

كانت بداية صحيحة وكانت بحاجة إلى أن تُنمَّى وتتطور وأن يسد النقص مثل الاهتمام بالتخلف المادي للمسلمين وما يحتاجونه من العلوم المساعدة على القوة والعمارة لننتقل منها إلى مشروع نهضوي عملي، يجنب البلاد العربية والإسلامية ما وقعت فيه من التخبط الفكري والتخلف الحضاري ؛ فالذين جاؤوا بعد هذه البدايات شغلوا بالجانب النظري، وشغلوا بالفكر الدفاعي والردود على المستشرقين، كما انشغل بعضهم بالتصدي لجبهات عدة جبهة الليبراليين والعلمانيين والاشتراكيين . ومشروع النهضة يجب أن يكون متكاملاً شاملاً لكل الجوانب في حياة المسلمين.

---

(١) البشير الإبراهيمي : الأعمال الكاملة ٥ / ١١٧

دار الصفوة
للنشر والتوزيع

مصر - القاهرة
٤٢ ش جزيرة بدران / أول شبرا ت وفاكس ٢٥٧٧٤٩٢١
E.mail darelsafwah@yahoo.com